رسالة إلى حسن

يا حسن

ردّدتُها في جنبات المنـــزل يوم الرحيل، وبعده، و لم أسمع جوابًا.

أراك تنظرُني حائرةً ذاهلة، ولا تسعفُني بكلمة. غضبتَ ربّما، قلتَ استغلّت دلال غيابي لتحادث الناس عنّي وتُطنب، ها هي دلال تهذي، تُسمع المعزّيات "أحنُّ إلى خبز أمّي"، لتخبرَهن أنَّ حسن غنّاها وهو في الرابعة على مسرح المدرسة، وتأتي بالصورة شاهدًا على ما تقول. تناديك دلال، فلا تجيبها، فلا تصدّق، تحكي للقريب وللبعيد أنّك أجبتَ من اقترح عليك السفر للتخصّص في الخارج، أنّك لا تحبّ العيش في بلاد يُنظر إليك فيها باستعلاء، مواطنًا من الدرجة الثانية؛ تقول إنّك تعمل على إقناع أخيك محمّد بالعودة بعد أنْ يُنهي اختصاصه وإنّك لنْ تفارق دلال...

لكنّك تركتَه مبتورَ الجناح، لا مرجعيّةَ له، وتركتَها ثكلى مفجوعةً تستجدي درهمًا صبرًا...

ينصحها المشفقون، الحاضرون، أو من طواهم الغياب:

– تصبّري، تشاغلي بالصلاة، بالكتابة، بالتعليم، أما كنتِ تقولين إنّك في غرفة الصف تنسين ما في خارجها؟

فتجيب: هذه المرّة لا! لم يعد لأيّ شيء طعمٌ ولا مذاق، فالوجع وصل إلى الذروة، والمسكّنات آنيّة، والقلب المتصدّع المنفطرُ، جروحُه، لا التئامَ لها...

يراها المحبّون وقد عَشِيَت عيناها، فيقولون: ليت الذي تبكيه كان هو الذي يبكيها، ويوزّع كتبَها صدقةً، ثم ينجزُ هو كتابه الذي تركه قبل أنْ يكتمل...

كتابك!!

قبل أشهر من يوم الرحيل، أخبرتَني أنّك عثرت على كتاب باللغة الإنكليزيّة عن "تاريخ الإسماعيليّة" لكاتب يدعى فرهاد دفتري، مدَحتَ موضوعيّة الكاتب وشموليّة الكتاب، حكيتَ لي كعادتك بعضَ ما ورد فيه، وأنّ الحسنَ الصبّاحَ الموصوفةُ جنّتُه الأرضيّة في "سمرقند" أمين معلوف هو الحسنُ الصبّاح الحفيد، أمّا الجدّ فكان عالـــمًا رياضيًّا، زاهدًا في الحياة الدنيا، متشدّدًا في الفرائض والأحكام... وأنّ فدائيّيه قاوموا الصليبيّين [فالمقاومة بالنسبة إليك أمرٌ مقدّس، المعيار الذي تقاس به الأمور، ويقوّم به البشر].. كنت تريد أنْ تُثبت أنّ

الحسنَ الصبّاح هو الجدّ الأكبر لعائلة جاءت إلى بلاد الشام يومًا، واستوطنت تلك القريةَ المسمّاة "خرائب صبّاح" بالقرب من جزّين، وإليها تنتمي عائلتُك التي تثبت الوثائق التاريخيّة أنّها طُردت مع من طُرد من تلك المنطقة منذ أكثر من قرنين، فتفرّقت أيدى سبأ بين النبطية وفلسطين وحوران...

قلتَ إنَّ كتاب فرهاد دفتري يستحقّ الترجمة بالعربيّة، وبدأتَ ترجمته فعلاً...

ليلةَ الرحيل تحدّثنا عن الكتاب، وعن الترجمة، ومن سينشرها، ثم غادرتَ...

أوّلُ ما فكرتُ به وأذعتُه على الملأ قبل أنْ أستوعبَ أو أصدّقَ ما حدث، أنّني سأكمل ترجمةَ الكتاب، وأنشره باسمك...

أُحبطتُّ حين جاءتْني رشا بنسخة الكتاب العربيّة، أُسقِطَ في يدي، وشعرت بالخيبة...

تشاورتُ ورفيفَ ومحمّد وقرّرنا أنْ نطبع هذا الكتاب، ليطّلع عليه أولاد إخوتك في المستقبل... نضمّنه بعضَ النصوص النابعة من قلوب محبّيك...

أعرفُ، ستقول:

تعرفين أنّني لا أحبّ التفاخر، انتهزتِ فرصةَ سفري، وأخذت تحدّثين الناس عن ذكاء حسن، وجمال حسن صورةً وصوتاً وخصالاً، وقدرته على استشراف المستقبل، ونضجه المبكّر، ووعيه السياسيّ، ورؤيته إلى المواقف والأشخاص بالأبيض والأسود... واللهِ يا أمي، أشفقتُ عليكِ من نظراتهم التي تشي باعتقادهم أنّك تبالغين وتهذين...

أعرفُ، ستقول:

لا أريد صورًا ولا كلامًا، أريد فقط أنْ أستوطنَ قلبَكِ، أنْ أضعَ رأسي على صدرِكِ، كما كنت أفعل صغيرًا وكبيرًا، وأنت ترتدين ثوبك البيتـــيَّ المزهّر، ذاك الذي كنت أحبّه، وأشمّ رائحته حليبًا، تستغربين فأقول لك، ألا تعرفين أنَّ الروائح تُشمّ مجازًا يا أستاذة اللغات؟

"أستاذة اللغات" التعبير الذي كنت تطالعني به حين أستشيرك: أيَّ الفعلين يؤدي المعنى أفضل؟ أو ما هي الجملة المناسبة هنا أكثر، فتجيب من دون تردّد، وجوابك هو الذي أستخدمه، أو تقول مبتسمًا، من "أستاذ اللغات" أنا أم أنتِ؟ غادرتَ وغادَرتْ معك الأفعالُ وجفَّ الحبرُ، وتكسّرتِ الأقلام...

صارحتَني قبل رحيلك بأيّام، أنّك راسلتَ إحدى الصحف التي طلبتْ مترجمين، قلتَ ساخرًا إنّهم يريدون حملة شهادات في الترجمة، لا يُدركون أنّ إتقان اللغات، لا عَلاقة له

بالمدارس ولا بالشهادات: تحدّثنا مطوّلاً عن الأمر، وعن المدارس والمناهج العقيمة، وأساليب التلقين والشهادات الرسميّة، واستطردتَ للكلام على المنصوبات والمنطق الرياضي في قواعد اللغة العربيّة، وزايات اللهجة المحكيّة، والمدارس!

نعم المدارس، قلتَ إنّك لم تتعلّم أيَّ لغة من المدرسة، فالعربيّة تعلّمتها من الشعر المغنّى الذي حفظتَه صغيرًا، وذكّرتني بقصّة الحال في "منتصبَ القامةِ أمشي" و "يعبرونَ الجسرَ في الصبحِ خفافاً" التي كنتَ تُلقيها في غرفة الأساتذة في ثانوية البنات، لـــمَّا كنتُ أصحبُكَ معي أيّامَ السبت، وأنَّك سمعتنا نتحدّث عن الحال في الجملة، ولم تعرف يومها ما نقصد، إلاّ بعد سنوات... وقلتَ إنّكَ تعلّمت الإنجليزيّة من الأفلام، والفرنسيّة من الروايات، وأنَّ كتبَ أمين معلوف هي التي حضّتك على إعادة قراءة التاريخ الذي كرّهَتْك به المدرسةُ.

أتذكُر، حين كنتَ في الثالثةَ عشْرةَ، عشيَّة امتحان الشهادة المتوسطة: قلتَ إنّك لا تريد أنْ تدرس التاريخ والجغرافيا والتربية المدنيّة حفظًا كما يُريدون، فإذا كنتِ تطمعينَ بالدرجة [وأنا لا تهمني]، فعليكِ أنْ تقرأي ما في الكتاب، وأنا أستمع.

قبل أنْ أحتجَّ وضعتَ رأسك على صدري كدأبك وأغمضتَ عينيك، أخذتُ أقرأ العناوين مكرَهةً [كانت إحدى المرّات النادرة التي تسمح لي أنتَ، أو أسمح أنا لنفسي أنْ أتدخَّل في دروسِك]، ولما ملَلْنا كلينا، اتفقنا أنَّ هذا القدْرَ كافٍ لنيل المعدّل، وقلتَ أنتَ [وأيّدتُ رأيك كما أفعلُ عادةً] لتذهبِ الدرجاتُ المعتمِدة على الحفظ إلى الجحيم...

أمَّا السياسة:

أنت تعرف حتمًا، أنّني الآن أجهلُ كلّ ما يجري في العالم، إلاّ ما ندر. فأنت مسافرٌ، ولم تعد تلخّص لي الأحداث والمقالات من الصحف العربيّة والعالميّة، وتخبرني ما حدث، وما سيحدث، ساخرًا من شعارات الحريّة والديمقراطيّة [كلام حقّ يراد به باطل، تقول]. المعيارُ لديك فلسطين ومدى القرب أو البعد من قضيتها...

الحياة...

كيف اختصرتَ المسافاتِ وطويتَ الأزمنةَ لتعيش في أربعة وعشرين عامًا وبضعة أشهر ما يحتاج عيشُه لدى الآخرين عمرًا مديدًا... والدنيا إمّا أبيض أو أسود، والناس [هذا نظيف، وهذا غير نظيف]، اخترتَ الطبّ مهنةً للعيش، تُغنيكَ إنْ امتهنتَ الكتابةَ السياسيّةَ عن الارتزاق من المال الأسود الوسِخِ كما كنتَ تسمّيه...

حين قلتُ لك، سنشتري لك سيارةً في مطلع السنة القادمة بعد التخرّج، والانتهاء من أقساط الجامعة. قلتَ: هذه مسخرة، وما بها هذه السيّارة، [ثم إنَّ عليها أثار أهل الحريّة والديمقراطيّة الذين قطعوا طريق الناعمة]...وهل السيّارة للتباهي؟

المعلّمون! ناديا الشاب

منذ اللحظة التي دخلتَ فيها المدرسة وأنت تعود واصفًا معلّميك، تعرفهم بسيماهم، تتحدّث عن خصالهم، عن مستواهم العلميّ، عن تلجلجهم في الصف...

كان ذلك في بداية العام الدراسي، في السنة الأولى الثانوية:

– أتعرفينها "ناديا الشاب" معلّمة الطبيعيّات، قلتَ "البيولوجي"، إنّها رائعة، متفوّقة، تتقن المادّة، وتعرف كيف تعلّمها، واثقة من نفسها، محبّة، لطيفة، لغتها ممتازة، وخطّها رائع! من الساعة الأولى!!

تأتيني بعد ذلك "ناديا الشاب"، تسألني، من أين لحسن كلّ هذه المعرفة بالمادّة؟ لقد أدركتْ منذ البداية أنّك تعرف أكثر من المطلوب، أخبرتُها، أنّك كنت تتسلّى منذ التاسعة بمشاهدة دروس الطبّ على حاسوب أخيك.

لقد أهدتك ناديا الشاب رسالة مودّة...

دلال